أبناء المهاجرين بين مطرقة الاندماج وسندان أوطانهم الجريحة

تشير الإحصائيات والدراسات إلى أن أبناء المهاجرين من الجيل الثاني والثالث، هم أقوى نبضاً وأكثر مجاهرة بتمسكهم بأصولهم من آبائهم، الذين كانوا يفضلون الصمت خشية الطرد أو انقطاع الرزق. ربما هذا ما يفسر تفجّر معضلات الاندماج العربي - الإسلامي الآن وليس قبل ثلاثين سنة. لكن هؤلاء الشبان ليسوا اقل ضياعاً من الجيل الذي سبق. ثمة محاولات كثيرة لفهم قلقهم وإحباطهم، لكن المثير أن غالبية المؤشرات تدل على أن سببين أساسيين هما وراء المعضلة: اختلاف الدين والظلم الواقع على الأوطان. هذا الظلم الذي غالباً ما يكون للبلد الثاني علاقة به، من قريب أو بعيد. أبناء المهاجرين يضمرون احياناً غير ما يظهرون، في هولندا تستعين السلطات بالفنانين لاستبطان كوامنهم، وفي أميركا حكاية الشاب فارس حسن، أججت التساؤلات والاستفسارات حول بواطن هؤلاء الشبان. «الشرق الأوسط»، ترصد هاتين الحالتين.

ملف

الفيلم الوثائقي «الكسكس والكولا» يكشف تناقضات صارخة

هولندا تستعين بالمخرجين السينمائيين لحل أزمة المهاجرين

الخرطوم، شذى مصطفى

لماذا لا يستطيع الجيل الثاني للجاليات العربية والإسلامية المقيمة في هولندا أن يتبنى الثقافة الهولندية أو أن يندمج فيها؟ كيف يعيشون؟ مما يشتكون ويعانون؟ تسعة شباب عرب وأفارقة تتبعتهم الكاميرا في المدرسة والبيت لتعرف أفكارهم وما يقلقهم في المجتمعات الغربية والولايات المتحدة على وجه الخصوص في محاولة لفهمهم، ولبناء جسور بين الثقافتين، وكل هذا نراه في فيلم بعنوان «الكسكس والكولا»!

جاءت المخرجة ماتيا نيفيان الى الخرطوم، كاول عاصمة خارج أمستردام، تعرض فيها فيلمها الوثائقي «الكسكس والكولا» المهتم بالثقافتين العربية والغربية والذي بث على مدار 8 حلقات في التلفزيون الهولندي وفاز بجائزة Zilveren Zibra وهي جائزة الإعلام الهولندية في نوفمبر 2005، وخصّت ماتيا بعرضه الجامعات السودانية لتعرف آراء الشباب عن الغرب ومعرفة رد فعلهم على ما يدور في الفيلم مناقشات بين الشباب العربي والغربي.

وفي سؤال لـ«الشرق الأوسط» لها، حول الدافع من وراء الفيلم؟ أجابت المخرجة ماتيا نيفين: حثت الحكومة الهولندية الفنانين والمثقفين لصنع أفلام لمحاولة إقامة تفاهم مع الجاليات المقيمة والمتزايد عددها في البلاد، ولبناء جسور بينهم وبين المجتمع الهولندي. ففي إحصائية أجريت أخيرا في هولندا وجد أن اسم «محمد» هو الاسم الأكثر شيوعا هناك بين المسلمين، وعدد المساجد في ازدياد مستمر، وعدد المواليد الجدد الأجانب في العاصمة أمستردام أكثر من مواليد أبناء البلد وهذا ما يثير قلق المثقفين! كما أن مقتل المخرج الهولندي فان خوخ على يد شاب مغربي، ثم الاعتداء على المساجد من قبل متعصبين، جعلنا نسأل بخوف ماذا يجري؟ هل هذه هولندا بلد الحريات؟ والى أين تقودنا تلك الأفعال؟ ليس ذلك فحسب بل نلاحظ انهم يفاخرون بأصولهم الأولى ومعتزون ومتمسكون بها، بينما لا يندمجون في الثقافة الهولندية. وتضيف ماتيا «هل المشكلة هي في مجتمعنا أم في نظامنا التعليمي أم بهم هم، ولذا رأينا أن نتعرف عليهم عن قرب ليحصل نوع من التفاهم بين الجانبين».

شباب بلا هوية

قاسم، ديبورا، رامي، عمر، أحلام، سويف، جليل، أكوسوا، إكنور، شباب من بلدان عربية وإسلامية وافريقية، تتراوح أعمارهم ما بين 16-19 عاما، بعضهم من أبناء الجيل الثاني المهاجر هناك، وبعضهم جاء صغيرا الى هولندا يتحدثون اللغة الهولندية بطلاقة، وتم اختيارهم ليكونوا أبطال الفيلم، تتبعهم الكاميرا في منازلهم مع أسرهم ومدارسهم وفي الشارع.

يبدأ المشهد الأول من الفيلم مستعرضا ردود فعل هؤلاء الشباب على مقتل المخرج فان خوخ، وبدوا كلهم غير موافقين على قتله، ويقولون إن القرآن لم يأمرنا بقتل من يختلف معنا في الرأي. ورغم أنهم يعارضون بشدة طريقة المخرج الراحل «المتطرفة» في التعرض للإسلام والقرآن، إلا أنهم يتفقون على أن هذه هي هولندا وعلينا أن نحترم طريقة شعبها في التعامل مع الأمور بالحرية القصوى! بل هم يقترحون القيام بمظاهرة تندد بمقتله «لتحسين» صورة المهاجرين في المجتمع الهولندي الذي ينظر إليهم بغضب أينما حلوا. ومن المشاهد الطريفة في الفيلم اعتراض الشاب الصومالي عمر على مجيء بقية أسرته إلى هولندا رغم إقراره بانه يعيش سعيدا هانئا بها، معللا رفضه بالقول «لا أريد لهم أن ينسوا القرآن والتعاليم الإسلامية كما نسيتها أنا، وهذا شيء لن يفهمه الهولنديون!» ثم تسالهم مخرجة الفيلم: ماذا بشأن أميركا؟» فيجيبها أحدهم «أصبحت نموذجا للموسيقى والملابس والسينما وكل شيء».

وتذهب الكاميرا للتعرف على أسرة الشاب كاظم المغربي، الذي يقول إنه ما زال يشعر بانه «غريب» هنا، بينما في المغرب العشيرة والأهل. أما الفتاة التركية «الكنور» التي ترتدي الحجاب فقط في رمضان، فتقول إنها ترتديه في هولندا بحرية متى شاءت غير أنه ممنوع في المدارس، وترى في إرتداء الحجاب نوعا من التغيير أو هو يتيح لها التميز والظهور كفتاة مختلفة ليس إلا! وربما كان في تصريحها صدمة للمشاهد الهولندي الذي كان يرى تحت أي حجاب رأسا يحمل عقلا - زرقاويا!

أما الهوية، فكلهم يعترضون على قول المعدّ الهولندي - باتريك - الذي رافقهم عندما سالهم «أنتم الآن هولنديون ويمكنكم الحصول على تاشيرة و..؟!» فيقاطعونه باحتجاج «كلا، نحن فقط نحمل الجنسية الهولندية»، وبدت المسافة بعيدة جدا عن الإندماج!

رحلة إلى بلاد البرجين

الجزء الثاني من الفيلم عن رحلة لهؤلاء الشباب الى الولايات المتحدة، للإلتقاء مع شباب هناك من نفس الأعمار ومحاولة استعراض وجهات نظر وأفكار الطرفين حتى يسهل التفاهم. وكان المشهد غريبا، إذ يبدي الشباب في بداية الفيلم عداءهم الواضح تجاه بوش والولايات المتحدة، بينما نراهم في غاية السعادة وهم يحصلون على فيزا للدخول الى هناك. «فهم ضد سياسة الحكومة الأميركية وليسوا ضد أميركا» كما يعلّقون! سمح لسبعة منهم بالحصول على فيزا للدخول ومنع إثنان فقط، وهما الشابان من أفغانستان وتركيا!

وبدأ التجوال في شوارع نيويورك وفي المنطقة القريبة من البرجين المشهورين، وتعلق الفتاة من غانا «أميركا ساعدت على بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ولم تساعد أفريقيا ولا العالم العربي، لماذا؟ لذا كان هناك أناس سعداء بما جري في الحادي عشر من سبتمبر»

ويقول أحدهم كانت النتيجة قبل 11 سبتمبر (0/1) لصالح الولايات المتحدة، بينما هي الآن تعادل (1/1).

وتصادف أن اجتمعت المجموعتان العربية - الأفريقية مع الشيبية الأميركية في يوم الرابع من يوليو (تموز)، وهو يوم ذكرى الاستقلال الأميركي، وكان أن وقفوا جميعهم أمام العلم الأميركي وبدأوا ينشدون النشيد القومي وقد نقلت قناة الـCNN الأميركية النقاشات: «الشعب الأميركي طيب المعشر إذا لم يصوت لبوش؟»، «الإعلام الأوروبي لا يذكر إلا مساوىء بوش، نحن نعرفه جيدا». وفتاة أميركية أخرى تجيب «لا تلومونا كشعب، الحكومة تفعل ما تشاء من دون أن تخبر أحدا». «لم لا تساعدون فلسطين كما ساعدتم العراق؟» ويجيب الفتى الأميركي البدين خالطا الجد بالسخرية «فلسطين فقيرة ليس بها بترول، لماذا نساعدها؟! لعلك لا تعرف أن المال أهم شيء في هذه البلاد».

ويسأل شاب أميركي بدوره «لماذا تكرهوننا؟» فيجيبه الشاب المصري رامي «أميركا ساعدت إسرائيل في حربها ضد مصر، معظم افراد أسرتي ماتوا فيها»، ويجيبه عمر الصومالي «في عام 1993 جاءت أميركا الى بلدي الصومال وقتلوا كل افراد أسرتي ونجوت أنا وكنت في التاسعة». وانتهى الاجتماع بقول الشاب الأميركي «كنت أعتقد بل أؤمن بان أي شاب عربي أراه هو إرهابي قطعا، ولكن ها أنتم شباب عاديون طيبون، نحن سعداء بزيارتكم».

صور سوداء لونها الفيلم

الجيل الحالي، المهاجر في هولندا يبدو مختلفا عن الجيل الأول، الذي لم يتمتع بسمعة طيبة بل «يكفي رؤية شخص بملامح عربية من بعيد في الشارع لتتشبث النساء بحقائبهن خوف النشل! هذا غير رفضهم للتعليم المدرسي أو تعلم اللغة الهولندية» كما تقول المخرجة ماتيا لنا، وتضيف «كانت صورة سلبية نجح الفيلم في إزاحتها عن الذاكرة، فها هم الشباب يمارسون شعائرهم الدينية من دون تعصب ويرقصون الراب ويكتبون الشعر ويدرسون ويحلمون بالتفوق، ولهم مشاكلهم ومعاناتهم الخاصة في الإحساس بالعزلة»، وكتبت صحيفة «باروول» تعليقاً على الشريط: «بمسلسل واحد كل الإنحيازات ضد الأجانب تلاشت، سلطت الأضواء على ملامحهم القاسية فظهرت ملامحهم الحانية، لقد تعلمنا أن نفهم لماذا يكافحون في حياتهم في أمستردام الغربية».

أما صحيفة «فولكسكرانت» فكان تعليقها «نسمع من الأخبار أن للشباب المقيم هنا دوافع حقيقية للغضب من هولندا وبقية الغرب، وغضبهم أصبح واضحا في «الكسكس والكولا»، بدأنا من هذا المسلسل الاتصال للنقاش مع الإسلام المعاصر».

أما صحيفة «التيليغراف» فكتبت «مع الشباب الأميركي تغيرت وجهات النظر عن القوة الأولى في العالم، وعن الإسلام والإرهابيين، وهي قضايا ليست بالسهلة، وحدث هذا لأن شباب الكسكس وأقرانهم الأميركيين توصلوا الى نفس النتيجة التي قالتها أحلام: كانت هناك أخطاء كثيرة في العالم، والآن جاء دورنا». نحن الجيل الجديد، علينا أن نتأكد باننا لن نرتكب نفس الخطأ الذي وقع فيها من سبقونا».

الأفلام الوثائقية يمكن أن تخرج من طريقتها التقليدية السائدة حاليا الى التعريف بفئات المجتمع المختلفة والأقليات العرقية أو المهاجرة التي بينها نزاعات واضطرابات خفية، بعيدا عن صخب الصحف وإثارتها والتي يأتي تركيزها عادة على الصور القاتمة، أو الفئات المتعصبة التي لها أبواق إعلامية عالية تمنع سماع صوت الطبقة المهمشة الضعيفة.

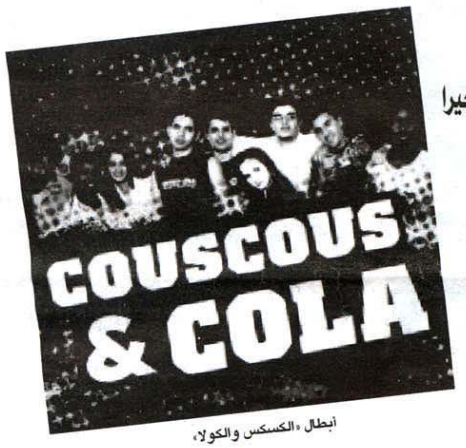

أبطال «الكسكس والكولا»

> في إحصائية أجريت أخيرا في هولندا وجد أن اسم «محمد» هو الاسم الأكثر شيوعا هناك بين المسلمين.. والمساجد في ازدياد مستمر